الدرس الثالث

منهجية البحث التاريخي(2)

ثالثا: المؤرخ ومنهجية البحث:

إن منهجية البحث بالنسبة للمؤرخ ضرورية بلا جدال، فأبسط الأمور في الحياة بحاجة إلى بعض الأسس والضوابط لتفسيرها، فكيف الحال بالنسبة للمؤرخ وهو يعالج مسائل تتنوع بين التاريخ السياسي والاقتصادي وقضايا الفكر والحضارة والنظم. إن منهجية البحث بالنسبة للمؤرخ المحترف وحتى المبتدى، متعددة الوظائف والأهمية، فالفرق بين باحث يلتزم بالمنهجية من عدمه، كالفرق بين من يخطو خطوات ثابتة في تطوير عمله، ومن يسير بخطى متعثرة لا يستطيع أن يحدد نقطة النهاية لعمله.

وأهم ما يميز عمل المؤرخ في وقتنا الحاضر هو المنهج الذي يتبعه في كتابة الأعمال التاريخية التي يعمل على تطويرها شخصيا. فالتاريخ مثلما عرفنا، هو ليس مجرد سرد لحوادث الماضي كما كانت تكتب حوادثه من قبل مؤرخي العصور الوسطى وما بعدها، وهو ليس مجرد سرد للاحداث وتنسيقها ترتيبا كرونولوجيا ومنطقيا بالأسلوب الإنشائي التقليدي، كما كان يتميز بها الكثير من كتاب التاريخ. ومما لاشك فيه أن التاريخ قد حقق تقدما كبيرا في وسائل دراسته، وفي مفاهيمه وفي إبراز شخصيته كعلم قائم بذاته بأصوله وقواعده.

ولقد ساعد تطور علم التاريخ في اتساع قاعدة الدراسات التاريخية، بحيث شمل مظاهر الحياة بأجمعها وفي تحقيق التطور الذي أصاب طرق البحث التاريخي، ليتحول المؤرخ من الكتابة بأسلوب السرد الأدبي إلى التحقيق العلمي واستخدام النظريات في الكتابة التاريخية. ونتيجة ذلك انصرف المؤرخ في تعليلاته لسير التاريخ من ما كان يشده من قوى علوية-غيبية إلى المسائل المرتبطة بالمجتمع وعاصره والظروف التي تخص بيئته وتكوينه البيولوجي وكل ما يتعلق بالدوافع الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التي تكيف سيرورة

الأفراد والجماعات. وعليه، لا يمكننا الاعتراف بأي شخص من أنه مؤرخ من دون أن تكون له منهجية بحث واضحة الملامح وإدراك تام لمضامين منهج البحث التاريخي.

رابعا: خصائص منهج البحث التاريخي ومميزاته:

ومثلما ذكرنا من قبل فإن منهج البحث التاريخي هو مجموعة الطرق والتقنيات التي يتبعها المؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية. وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه. وكما كان عليه زمانه ومكانه ويجمع تفاعلات الحياة فيه. وهذه الطرق قابلة دوما للتطور والتكامل مع تطور جموع المعرفة الإنسانية وتكاملها ومنهج اكتسابها.

ويمكننا أن نتبين خصائص ومميزات المنهج التاريخي، الذي يعتبر متداخلاً مع العديد من المناهج الأخرى، شأنها في ذلك شأن انفتاح العلوم على بعضها البعض. وتداخلها مع حركة الوعي الإنساني الذي صاحب معطيات التفكير في كل العصور. ولعل من أبرز هذه الخصائص والمميزات نذكر:

1. المنهج التاريخي في النقد. شأنه شأن أي منهج حساس إذا فقد فيه صاحبه توازنه. فقد خصائص نقده. وصار مؤرخا أو جماعة للتاريخ. وصار النقد الأدبي لديه مادة للتاريخ ولم يصر التاريخ مادة للنقد.
2. المنهج التاريخي منهج يحاول أن يبلور العلاقات الموجودة بين الأعمال التي قام بها الانسان في إطار تاريخي – زمني (أي في طار وعي بحركة التاريخ) .
3. منهج البحث التاريخي يحتاج إلى ثقافة واعية وتتبع دقيق بحركة الزمن وما فيه من معطيات يمكنها أن تنعكس في صورة مباشرة أو غير مباشرة على الكتابة التاريخية. ولعل عنايته أحيانا بالطابع التحليلي يبرز مظهر ذلك الوعي. فالناقد التاريخي إن صح التعبير قد يلتفت إلى النص التاريخي ويحلله في إطار إحصائي أو بياني أو غيرهما من المخارج التحليلية. ليصل في النهاية إلى هدفه وغايته. وهو محاولة الربط بين

استخدام تلك المقاييس التحليلية وبين العصر الذي ولدت فيه النص و بين المؤرخ الذي تأثر بذلك العصر، ولهذا نجد منهج البحث التاريخي منهجا مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمناهج النقدية.

4. منهج البحث التاريخي معني بمستويات النقد وأطره لذا فهو يستخدم كل مراحله الممثلة في التفسير والتأويل والتنقيح والحكم، نظرا لعنايته الجادة بالنص كرؤية واقعية ترتبط بالزمن والعصر والبيئة، ويلعب المؤلف دوره المحلل في ضوء تلك المراحل التي لا غنى عنها في العملية النقدية.
5. يظهر منهج البحث التاريخي وكأنه حالة خاصة في حقل التاريخ. أي أنه يذكر الماضي من أجل الحاضر. ويحيي العلاقة التي غالبا ما تكون عاطفية مع كبار القدماء الذين سبقوه. فهو بالطبع يحصر حقل أبحاثه في ميدان الأدب محددا علاقاته بكافة الأطر الاقتصادية والسياسية والثقافية. لتبيان ما فيها من عوارض وإشارات تنم من عقلية نقدية ما.
6. المنهج التاريخي يختص بالتوفيق في الأعمال القديمة من حيث ذكرها وحفظها وترتيب ظواهرها في سياق التسلسل التاريخي التي يتكون منها حياة الأدباء وإنتاجهم والجمهور و العلاقات بين الكاتب و مستهلك الكتاب. ويقدم التفسيرات حول هذه الأشياء. وعلى مستوى أعمق يحاول شرحها وحتى إحيائها من خلال المقتطفات. أو يقوم أمام تراكم الوقائع بإطلاق المعايير والقواعد التي تحكم بيئة الأدباء وسيرتهم الذاتية.
7. وعلى مستوى ضيق. فان المنهج التاريخي يتتبع الأعمال الأدبية من حيث إقرار النصوص والوقائع والأحداث فيها. فهو يدرس المخطوطات، ويقارن الطبقات، ويدقق في التصويب النهائي للنص بالإضافة إلى دراسة تكوينات الوقائع الاجتماعية المتعلقة بسيرة الكاتب الذاتية .

هذه أهم الملامح التي تميز المنهج التاريخي وتحدد خصائصه، ولا شك أن معطياته قد لا تعطي كل الثمار المرجوة في الحركة النقدية. وأهم ما يعيبه دراسة النص من الخارج، والوقوف على المغزى الواقعي الذي قد لا يكشف لنا

أحيانا رؤى النص المتمثلة في التحليل والخيال والبعد المثالي الذي تفضيه مشاعر المؤرخ (المبدع).